مجلة جامعة الملك عبدالعزيز: الآداب والعلوم الانسانية، م٢٧ع١ ص ص: ٢١١- ٢٢٧ (٢٠١٩م)
DOI:10.4197 / Art.27-1.7

أثر الباعث الديني في نشأة البلاغة العربية قراءة في حقبة التكوين إلى التأليف المستقل

وائل العمري

كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الملك عبد العزيز

جدة – المملكة العربية السعودية

مستخلص. نمت جذور الدرس البلاغي في أرض دينية خصبة، ميزت بلاغتها عن بلاغات بقية الأمم في ارتباط حراكها بالنص القرآني، لكن الرافد الديني لم يكن ذا موضوع واحد، وغاية واحدة، بل أثمر سياقات متعددة صقلت مباحث الدرس البلاغي لاحقا، فكان هذا التنوع أداة إخصاب للبلاغة العربية.

حاول البحث أن يقف على ملابسات الجذور، لاستخلاص مساقات الأثر الديني في نشأة البلاغة العربية، وقد تجاوز البحث الحكايا والأخبار الشفوية ليبتدئ بالمدونات المكتوبة؛ بحثا عن دوافع التأليف وغاياته، والمعالم التي أسهمت من خلالها في رفد الدرس البلاغي، وينطلق من إرهاصات التكوين ليقف عند بداية التأليف المستقل للبلاغة العربية التي انتقل بها إلى طور يقترب من المنهجية. وقد أسفرت النتائج عن كشف ثلاثة مساقات نبعت من الأثر الديني ذات علاقة باللغة وهي: التحليل والتأويل والتعليل، وهي أدوات طُوعت في التحليل لفهم النص القرآني بغية نقله من اللغة إلى الفعل، بينما أثار التأويل مسألة المواءمة بين اللغة والمعتقد، وينصرف التعليل إلى العناية بقضية الإعجاز وتبين معالمها.

إن إعادة قراءة تاريخ العلوم مجال خليق بالبحث، وإعادة طرح السؤال، وتفكيك علاقاته، لفهم سيرورة العلوم، وأثر روافدها على مفاهيمها، وهذا ما يمكن أن يفحصه الباحثون في بقية الروافد التي أذكت الدرس البلاغي.

الكلمات المفتاحية: نشأة البلاغة، تاريخ البلاغة، البلاغةالعربية.

مقدمة

لتاريخ العلوم أثرٌ مهمٌ في معرفة كيفيَّة تشكُّل مسائل العلم وأصوله، وتُعرف هذه الأصول بتتبع سياقات النَّشأة، وملابسات تلك السياقات التي أنتجت الأصول. وعلم البلاغة العربيَّة واحدٌ من هذه العلوم التي نشأت نشأةً عربيَّةً، وانفصلت مسائلها بعد أنْ مرَّت بمرحلة التَّكوين التي شهدت انبثاق أصول هذه

المسائل من حقولٍ مختلفةٍ، وقد دَفَع إلى البحث في الأصول بواعثُ متعددةٌ، لتحقيق غاياتٍ مختلفةٍ.

من هنا يحاول البحث أنْ يقف على أثر الباعث الديني على نشأة البلاغة العربيَّة من مرحلة التكوين، إلى مرحلة التَّأليف البلاغيّ المستقل الذي يمتد إلى نهاية القرن الثالث الهجري، وهي مرحلة انطلقت مع تأليف عبد الله بن المعتز لكتاب البديع.

يركز البحث على المنجز البلاغي المدوَّن، أكثر من تركيزه على المراحل الشفاهيَّة، ذلك أنَّ كثيرًا من الأخبار التي تتصل بتلك المرحلة يشوبها الغموض؛ إمَّا لعدم وجود الأدلة الكافية لثبوت هذه الأخبار؛ لوجود الانقطاعات الكبيرة في سندها، أو لتعارضها مضمونًا ومتنًا مع أصول التفكير؛ مايجعل الباحث يتوقف في قبول هذه الأخبار مصدرًا تُبنى عليه أصول العلم، ولم يغفل البحث هذا الجانب كليَّةً، إنما حاول أنْ يتلافى القطع بربط الأصول بتلك الأخبار، والاعتماد على المنجز المدون. والهدف من الاقتصار على التدوين بناء تصور بلاغي له سماته التي اكتسبها من ثقافة الكتابة، من جهة، والاعتماد على منجز محس موثوق، وهو على كل حال توثيق لنشأة البلاغة في طورها الكتابي(١).

(١) تناولت الباحثة نور الهدى باديس في أطروحة للدكتوراة التحولات في التفكير البلاغي بين طورين، طور الثقافة الشفاهية، وطور التدوين، وأثر ذلك على المعايير الجمالية. ينظر للاستزادة: بلاغة المنطوق وبلاغة المكتوب، دراسة في تحول الخطاب البلاغي من القرن الثالث الهجري إلى القرن الخامس الهجري، نور الهدى باديس.

يهدف البحث إلى قراءة هذه المرحلة في ضوء الباعث الديني الذي حفز حراك التَّأليف، والغايات التي أُريدَ تحقيقُها؛ لتظهر الملامح الوظيفيَّة للمنجز البلاغيّ في تلك الحقبة. والاعتماد على المنجز وعلى الربط بين البواعث والغايات يجعل البحث يحاول أنْ يسلك منحًى مختلفًا عن بقية الأبحاث التي أرَّخت للبلاغة العربيَّة، على الرغم من اتفاقها في المادة المدروسة. لذا يمكن تحديد أهداف البحث بما يأتي:

١- تحديد أثر الباعث الديني في نشأة البلاغة العربية حتى التأليف المستقل فيها.

٢- تحديد الغايات والوظائف التي أدَّتها الأصول البلاغية في تلك المؤلفات، مع مراعاة سياقاتها الحضارية التي نمَتْ فيها.

٣- معرفة مصادر الأصول البلاغيَّة التي ساهمت في صياغة التَّفكير البلاغيّ، والتَّدقيق في موثوقيَّة نسبة الأصول إلى مصادرها.

كما تطرح الدراسة سؤالًا مركزيًا: ما أثر الباعث الديني في الاهتمام بالمسائل البلاغيَّة في مرحلة نشأة البلاغة العربيَّة إلى مرحلة استقلال التَّأليف في البلاغة؟ وما الغايات التي سعى لتحقيقها؟

وبناء على ما سبق قسم البحث إلى ثلاثة محاور تسعى إلى الإجابة عن الأسئلة السابقة، فجاء المحور الأول في الاتجاه التحليلي بحثا عن كيفية استعمال البلاغة أداة كاشفة عن المعنى في التثقيف والتكليف، والمحور الثاني في الاتجاه التأويلي بإثارة

سؤال المواءمة بين اللغة والمعتقد، بينما اتجه المحور الثالث إلى مساهمة البلاغة في تبيّن معالم الإعجاز القرآني.

منهج البحث

يتْبع البحث منهجًا نوعيا استكشافيًّا، يقوم على استقراء القضية في المنجزات والمدونات ذات العلاقة في الحقبة المستهدفة، محاولا الربط بين السياق التاريخي والحضاري لهذه القضية وما أضافته لتكوين العلوم، واستدعى ذلك النظر في مقدمات الكتب، لمعرفة أسباب التأليف، والنظر في علاقة الإضافة البلاغية بمجال العلم الذي أفرزها، كما تطلب ذلك الرجوع إلى كتب الطبقات والتاريخ لمعرفة ملابسات تلك الحقبة وأبرز القضايا التي قد تمسُّ التوجُّه نحو التأليف.

ولأن البحث يسعى إلى فحص البواعث والغايات، فلم يكن من أهدافه تتبع الأصول في تلك المؤلفات وتقصيها، وإنما الإشارة إلى حضورها، كما لم يعنَ بالترتيب التاريخي لأنَّ البواعث والغايات لم تنشأ على فكرة التعاقب المرحليّ.

الدراسات السابقة

الدراسات المنجزة في التأريخ لنشأة البلاغة كثيرة جدا، ويمكن الإلماح لبعض الأعمال المهمة مثل:

١- **الدراسات التاريخية** التي عنيت بالرصد التاريخي لنشأة البلاغة، ومن هذه الدراسات: (البلاغة تطور وتاريخ) لشوقي ضيف، و(البلاغة العربية تاريخها مصادرها مناهجها) لعلي عشري زايد، و(البيان العربي، دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية) لبدوي طبانة، و(دراسات حول نشأة البحث البلاغي وتطوره) لفريد النكلاوي، و(أصول وتاريخ البلاغة العربية) لبثينة إبراهيم، و(تاريخ نشأة علوم البلاغة العربية وأطوارها) لعبد العزيز عرفة، و(النقد الأدبي والبلاغة في القرنين الثالث والرابع ،المصادر والقضايا) لعلي عشري زايد، وبحث بعنوان: (نشأة البحث البلاغي) لعبد الحميد الجندي.

وهذه الدراسات تتقاطع مع السؤال العام جزئيا، حول نشأة البلاغة، وأبرز الجوانب التي رفدت الدرس البلاغي، غير أن الاختلاف في هذه الدراسة في تركيزها على الإجابة عن الدوافع والغايات في الإطار الزمني المحدد.

٢- **الدراسات الموضوعية الجزئية** التي تتعلق بتتبع أثر باعث أو جانب من هذه الجوانب، ومن أبرزها: (قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية) لعبد العزيز عرفة، و(أثر النحاة في البحث البلاغي) لعبد القادر حسين، و(تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية) لمهدي السامرائي، و(التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري) لوليد قصاب، و(إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة) لمنير سلطان. وتتقاطع هذه الدراسات مع الباعث الديني جزئيا، وقد أفاد منها البحث في جزئياته، غير أن الدراسة تسعى إلى إلقاء نظرة كلية على الباعث في سياق النشأة، وهو مالا ترومه تلك الدراسات الجزئية.

٣- **القـراءات الحديثـة للبلاغـة العربيـة**، وهـي الدراسـات التـي قـدمت قـراءات لتـاريخ البلاغـة مـن خـلال رؤيـة نقديـة حديثـة، ومـن أبرزهـا: (التفكيـر البلاغـي عنـد العـرب، أسسـه وتطـوره إلـى القـرن السادس) لحمادي صمود، و(البلاغة العربية أصولها وامتداداتها) لمحمد العمري، وبحث بعنوان:(البلاغة العربية إعادة النظر في النشأة والتطور) لمنذرعياشي فـي مجلـة علامـات ٢٠١٤م. العـدد ٧٨. وقـد بَنـى صمود دراسته على منهج البنيوية التكوينية، راصدا التراث في بنيته المتعلقة بالسياق، غير أن دراسته تتبعت حركة التفكير البلاغي إلى القرن السادس، مع اختلاف في الهدف الذي أراد من خلال تتبع حركة الفكر البلاغي عامة. أما دراسة العمري فتنحو نحو منهج جمالية التلقي في بعده التاريخي. أخيرا تقدم دراسة منذر عياشي تصورا مغايرا لتاريخ البلاغة من خـلال طـرح أسـئلة حضـارية حـول علاقـة البلاغـة بالحضارات وإمكان تنقلها، وتلقي البلاغة في التراث الإسلامي، ثم النظر إلى روافدها من خلال ما سماه بلاغـة الحاضـرة، والمؤلفـات. وتختلـف هـذه الدراسـة عنهـا فـي تصـور الإجابـة مـن جهـة، وفـي النطـاق الزمني المحدد.

مدخل

تتبع ما وصلنا من المدونات البلاغية يفضي إلى أن البلاغة العربية لم تنفصل علما مستقلا إلا في مرحلة متأخرة، مقارنة بالنحو والتفسير وغيرهما من العلوم. فيعد بعض الدارسين كتاب البديع لعبد الله بن المعتز أول كتاب في البلاغة العربية(١)، ويميل آخرون إلى أن كتاب الجاحظ البيان والتبيين له الأولية(٢)، وأيا كان فإن التأليف المستقل في البلاغة لم يظهر إلا في النصف الأول من القرن الثالث الهجري(٣).

والحديث عن أولية التأليف منفك عن أولية العلم، لأن التأليف لا يظهر إلا بعد أن تستقر مسائل العلم، وتظهر ملامحه وقضاياه، وأولية العلم لا تُعزى لعالم بعينه يكون الملهم أو كما يسميه كلارك "السلف المبشر"(٤).

إذن فقد استقرت مسائل البلاغة في عهد التدوين، وهو ما جعل النظر إلى نشأة البلاغة أكثر استقرارا ومنهجية من العلوم التي نشأت أصولها الأولى في عصر الشفاهية(٥)، وعلى الرغم من ذلك لم تسلم نشأة البلاغة من خلال تتبع أصولها ومظاهرها في العصر الشفاهي من ورود بعض الأسس التي بُنيت على الخبر والحكاية؛ إذ يعود ذلك إلى تعلق البلاغة بروافد أخرى كالشعر والنحو، ففي تاريخ البلاغة أخبار عديدة تعيد أصول البلاغة الأولى إلى

---

(١) ينظر: الموجز في تاريخ البلاغة، مازن المبارك، ص٦٨.

(٢) ينظر: البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص٥٧.

(٣) توفي الجاحظ ٢٥٥هـ وقد عاش نيفا وتسعين سنة، أما ابن المعتز فولد سنة ٢٤٦هـ أو ٢٤٧هـ، وتوفي سنة ٢٩٦هـ، ينظر: وفيات الأعيان، أحمد بن خلكان، (٧٧/٣ و٤٧٤) وقد أشار محقق البيان والتبيين عبد السلام هارون أن كتاب الجاحظ ظهر بعد عام ٢٣٣هـ. ينظر: (مقدمة المحقق) (١٦/١).

(٤) ينظر: دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، جورج كانغيلام، ترجمة: محمد بن ساسي، ص٥٣.

(٥) ينظر: قضية نشأة النحو العربي في آثار الدراسين، عرض ونقد، محمد ربيع الغامدي، (الهامش)، ص٢٧٢٥.

ملاحظات الشعراء الجاهليين في مجالسهم وأسواقهم، كما أن بعض مسائل البلاغة وتصنيف مستوياتها بُني على حكاية كقصة الفيلسوف الكندي مع المبرد التي بني عليها تصنيف أضرب الخبر.

وبعد استبعاد فكرة الأولية، واستبعاد الاعتماد على الحكايا التي لاتخلو من ضعف في تصور هذه الحكايا أو لأجل التحيز المذهبي(١)، أو أثر الصنعة السردية أحيانا، بقي الالتفات إلى صورة تكوّن العلم من خلال الانفصال عن العلوم، إذ تبدأ هذه المسائل في مدونات علوم أخرى ثم تميل للاستقلال(٢)، مع الأخذ بالاعتبار أن هذه الجذور قد تسبقها مراحل أخرى يلفها الغموض قبل أن تستقر في المدونات.

من هنا أراد البحث أن يقف على جذور الدرس البلاغي، بدراسة الدوافع التي بعثت إلى العناية بأطراف هذه المسائل، والغايات التي سعت إلى تحقيقها، والمجالات التي ساهمت تلك الجذور في بلورتها، لتستقل بعد ذلك بالتأليف.

الباعث الديني:

كان الباعث الديني من أكثر البواعث تأثيرا في نشأة العلوم التي دارت حول النص القرآني، وعلى الرغم من أن هذه العلوم لم تنشأ في حقبة واحدة، ولم تكن دوافعها واحدة حتى داخل الباعث الديني نفسه، فكان من هذه البواعث ما تعلق بالجانب العقدي، ومنها وظف في الجانب العقائدي(٣)، غير أنّ تنوع الدوافع الدينية أثرى الإضافات التي رفدت بها موضوع العلم ومسائله. وظل هذا التأثير منذ وقت مبكر على العلوم الأولى كالتفسير والفقه حتى استقلت مباحث البلاغة(٤).

وكان لنزول القرآن الكريم أثر في نفوس العرب؛ لأنه مسّ مادة تفوقهم وبراعتهم، وخاض التحدي في الجنس الذي برعوا فيه، إذ تدل القصائد الجاهلية – صحيحة النسبة – إلى أنّ العرب كانت لهم عناية فائقة بمسالك التصوير والبيان. لذا كان بيان القرآن مادة دارت حولها العديد من المناقشات، اتجه بعضها إلى محاولة فهم ما غمض عليهم منه، أو ما أشكل تأويله، واتجهت مناقشات أخرى إلى نقله من حيز اللغة إلى الفعل من خلال استنباط مسائل التكليف، كما اتجهت نظرات أخرى إلى محاولة إثبات أصول الدين(٥). كل تلك المحاولات كانت تعالج مسائل اللغة وهي تحاول الإجابة عن المقصود والغاية.

---

(١) ينظر: التفكير البلاغي، حمادي صمود، ص١٩-٢٠.

(٢) ينظر: البلاغة العربية، تاريخها، مصادرها، مناهجها، عشري زايد، ص١٧ و١٨.

(٣) العقدي هو التلقي الفطري الأول للعقيدة الذي أسس معتقد المسلم كما نزل به القرآن، بينما تشكل العقائدية طورا تاليا تدخلت فيه الأنساق الفكرية، لتفرض أفكارها على حقول المعرفة، وهي فترة الجدل العقائدي، الذي وظف فيه النص القرآني لتشريع مقولاتها. ينظر: العقائدية وتفسير النص القرآني، المناهج، الدوافع، الإشكالات، المدونات، دراسة مقارنة، ياسر المطرفي، ص١٤.

(٤) ينظر: البلاغة العربية، تاريخها، مصادرها، مناهجها، ص١٨. والبيان العربي، دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، ص١٤.

(٥) ينظر: تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، مهدي السامرائي، ص١٧.

تأسيسا على ما سبق، كان لأثر الدوافع الدينية التي دفعت علماء القرون الأولى للتعامل مع اللغة أن ظهرت ثلاثة اتجاهات:

- **الاتجاه التحليلي:** يعنى هذا الاتجاه بتحليل اللغة وصولا إلى المعنى، أو وصولا إلى تأسيس القاعدة الفقهية أو الحكم الشرعي، وغايته الفهم، ويدخل تحت هذا الاتجاه المؤلفات التي اعتنت بالتفسير والفقه.
- **الاتجاه التأويلي:** وتستعمل فيه اللغة وطبيعتها محورا للنقاش العقدي والمذهبي، وغايته إثبات اتساق التصور بين اللغة والمعتقد.
- **الاتجاه التعليلي:** يحاول هذا الاتجاه البحث عن علة الإعجاز من خلال اللغة، وغايته إثبات الإعجاز والتدليل على التميز والمفارقة بين الكلام البشري والكلام الإلهي.

أ. الاتجاه التحليلي

- **التفسير**

تعد البلاغة مستوى من مستويات التفسير (١)؛ لأن البلاغة والتفسير يتناولان نصا بغية الوصول إلى فهمه، ففي حين يقصد التفسير المستوى العام الذي يتحقق به مراد قائله، تتجاوز البلاغة هذا المستوى إلى البحث عن مناط التأثير في الأسلوب، والبحث عن مستويات المعنى الذي يتفاوت وضوحا وخفاء، ومن هنا كانت مسائل التفسير تتعرض لما استقر بعد في علم البلاغة، حين أخذ المفسرون يحللون النص القرآني بغية الكشف عن المعنى الذي يخفى أحيانا؛ فيتجهون إلى اللغة ومسائلها لكشف هذا الخفاء، وقد "كان تفسيرهم لغويا في المرحلة الأولى، وتأويلا لما في القرآن من أمر ونهي، وإشارة وحدود"(٢).

كان المدخل اللغوي لتفسير القرآن الكريم واضحا خاصة في المؤلفات الأولى، ويظهر أن هذا المسلك لم يكن في عهد الصحابة(٣)؛ لوجود الرسول صلى الله عليهم وسلم بينهم، فيرجعون إليه لتبيان ما أشكل عليهم؛ ولأنّ هذا الجيل لم يحدث فيه من العجمة ما حدث بعد أن بَعُدَ العهد بذلك الجيل؛ فلم تكن الحاجة ماسة لأن يتولى أحد تقريب معاني القرآن، أو توضيح أساليبه، يستثنى من ذلك بعض المواقف التي لا تشكل على ندرتها منهجا في تلك الحقبة(٤). وكتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ) يعد من بواكير الكتب التي اتجهت للنص القرآني، ولمقاربة علاقة هذا العمل بالدرس البلاغي هناك ثلاثة مداخل: عنوان الكتاب (مجاز القرآن)، وقصة تأليف الكتاب، ومضمونه أو طريقته.

---

(١) ينظر: البلاغة العربية، تاريخها، مصادرها، مناهجها، ص١٤.

(٢) بديع القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، (مقدمة المحقق) ص٣٧.

(٣) هناك العديد من الحكايا والأخبار التي تنسب لابن عباس ولعمر بن الخطاب في هذا الصدد، ومن أشهرها مسائل نافع بن الأزرق مع ابن عباس، وقد انتُقدت هذه الأخبار، ودُرست دراسة حديثية في سندها ومتنها، وخلص بعض الباحثين إلى عدم ثبوتها، أو عدم ثبوت كثير منها. ينظر: مسائل نافع بن الأزرق في ميزان النقد، عبد الرزاق هرماس،١٣-٦١، والشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم، أهميته وأثره ومناهج المفسرين في الاستشهاد به، عبد الرحمن الشهري، ص٢٥٥ ومابعدها.

(٤) ينظر: الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم، ص٢٤٥ ومابعدها.

أما عنوان الكتاب فيبدو ظاهريا علاقته بالبلاغة، إذ ينص فيه على مصطلح من مصطلحات البلاغة، غير أن قراءة الكتاب والوقوف عند الأساليب التي استعمل فيها كلمة المجاز أو ما اشتق منها؛ تفيد أن أبا عبيدة لم يستعمل المجاز هنا بالمعنى الاصطلاحي الذي استقر عند البلاغيين بعد، وإن كان يتقاطع معه، فهو يستعمل المجاز ليدل على المعنى والتفسير والطرق التي يسلكها القرآن في التعبير(١)، وقد حصر أحد الباحثين هذه الاستعمالات فوجدها إجمالا تدور في خمسة حقول: "تداخل الضمائر وتبادلها المواقع، واختلاف أوجه الإعراب والقراءات، واستعمال اللفظ في غير موقعه المتوقع ومخالفة ظاهر القول، والزيادة والنقصان في تركيب الكلام، والنقل والإلحاق الدلالي"(٢). وهذا يعنى أن عنوان الكتاب لا يمثل العلاقة في مستوى الاصطلاح البلاغي.

أما قصة تأليف الكتاب فقد نقَلَتها العديد من المصادر الأدبية، وأقدم ما تيسر الوقوف عليه ما نقله الثعالبي (ت٤٢٩هـ) عن الصولي بإسناد إلى أبي عبيدة يحكي فيه لقاءه بالفضل بن ربيع، وما سئل عنه في مجلسه من أحد جلساء الفضل إذ استشكل مسألة في التشبيه في القرآن، فيقول: "قَالَ الله عز وَجل: {طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} [سورة الصافات:٦٥]،وَإِنَّمَا يَقع الْوَعْد والإيعاد بِمَا عرف مثله، وَهَذَا لم يعرف، فَقلت: إِنَّمَا كَلمهمْ الله تَعَالَى بِمَا يعْرفُونَ، وعَلى كَلَام الْعَرَب، أما سَمِعت قَول امرئ الْقَيْس:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي

ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يرَوا الغول وَلَكِن لما كَانَ أَمر الغول يهولهم أوعدوا بِهِ، فَاسْتحْسن الْفضل ذَلِك وَاسْتَحْسنهُ السَّائِل، فعزمت مُنْذُ ذَلِك الْوَقْت أَن أَضَع كتابا لمثل هَذَا وأشباهه، فَلَمَّا رجعت إِلَى الْبَصْرَة عملت كتابي الذي سميته كتاب الْمجَاز، وَسَأَلت عَن الرجل فَقيل: هُوَ من كتاب الْوَزير وجلسائه يُقَال لَهُ إِبْرَاهِيم بن إِسْمَاعِيل بن دَاوُد الْكَاتِب العبرتاني"(٣).

وعلى الرغم من ذيوع هذه القصة في المدونات الأدبية والبلاغية إلا أن ثمة نقدا موجها للقصة يُقلل من موثوقية علاقة القصة بسبب تأليف الكتاب، من هذه النقدات(٤):

١- عند البحث عن موضع الشاهد المذكور في القصة في قوله تعالى: {طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} لم يتوقف المؤلف عند هذه الآية في كتابه المطبوع عن نسخ متعددة، ولم يذكر النكتة البلاغية المتعلقة بالآية سبب التأليف، ومحال أن تبنى فكرة

---

(١) ينظر: مجاز القرآن، معمر بن المثنى، تحقيق: فؤاد سيزكين، (مقدمة المحقق)، ص١٩.

(٢) البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، محمد العمري، ص٩٦.

(٣) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص٧٧.

(٤) ينظر: خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، محمد رجب بيومي، ص٤٤و٤٥.

الكتاب على فائدة لم تذكر حين ورود موضعها في الكتاب.

٢- لم يذكر أبو عبيدة هذه القصة في مقدمة كتابه، وعادة المؤلفين أن يشيروا إلى سبب تأليف الكتاب أو أن يشيروا إلى ذلك في أي موضع منه، وقد خلا الكتاب من ذلك.

إذن بقي النظر في مضمون الكتاب لإدراك الصلة بين عمله والبلاغة العربية، وقد سبقت الإشارة إلى أن المقصود بالمجاز الوارد في عنوان الكتاب الطريقة التي سلكها التعبير القرآني، وهو بهذا معني بالأسلوب الذي أصّل له بالرجوع إلى الشعر الذي يعده من كلام العرب الذي نزل القرآن موافقا لأساليبهم فيه إذ يقول:" فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبي صلّى الله عليه وسلم أن يسألوا عن معانيه لأنهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه، وعما فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص، وفى القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب، ومن الغريب، والمعاني"(١). واهتمام أبي عبيدة بالأساليب ظاهر في ورود صور متعددة من العدول كتنبيهه إلى الالتفات في قوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ} [سورة يونس:٢٢]. قال: أي بكم، وحدد صورته بالانتقال من مخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب(٢). ويعلق كذلك في موضع آخر على التشبيه في قوله تعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ} [سورة البقرة:١٧١]، يقول:" إنما الذي ينعق الراعي، ووقع المعنى على المنعوق به وهى الغنم تقول: كالغنم التي لا تسمع التي ينعق بها راعيها والعرب تريد الشيء فتحوّله إلى شيء من سببه، يقولون: أعرض الحوض على الناقة وإنما تعرض الناقة على الحوض، ويقولون: هذا القميص لا يقطعني، ويقولون: أدخلت القلنسوة"(٣)، ومن اللافت في هذه النصوص(٤) غياب المصطلح البلاغي، وحضور المفهوم، وهو منسجم مع طبيعة المرحلة التي تتشكل فيها ملامح الدرس البلاغي.

ومن كتب التفسير المبكرة، كتاب معاني القرآن لأبي زكريا الفراء (ت ٢٠٧هـ)، وقد انتهى من إملاء كتابه كما ذكر في المقدمة سنة ٢٠٤هـ(٥)، وقد تعرض الفراء لبعض المسائل البلاغية في تعليقه على بعض الآيات، وإن لم يسمِ الأساليب، بل حللها تحليلا يكشف عن موضع المزية البلاغية، من ذلك وقوفه عند قوله تعالى:{وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} [سورة

(١) مجاز القرآن، ٨/١.

(٢) ينظر: السابق، ١١/١

(٣) السابق، ٦٣/١.

(٤) الإشارات التي وردت فيها اللفتات البلاغية في كتاب مجاز القرآن متنوعة ومتعددة المواضع، واستقصاء ذلك ليس موضع البحث، والمراد الإشارة إلى ورود هذه اللفتات في مرحلة مبكرة.

(٥) ينظر: معاني القرآن، تحقيق: محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي، ١/١.

الأعراف:١٤١]، تحدث الفراء عن ما استقر عند البلاغيين في مبحثي الفصل والوصل(١)، مقارنا بين مواضع المتشابه اللفظي لهذه الآية فيقول: "وقوله هاهنا: وَيُذَبِّحُونَ،وفي موضع آخر (يذبحون) بغير واو، وفي موضع آخر (يقتلون) بغير واو. فمعنى الواو أنَّهم يَمسُّهم العذابُ غير التذبيح. كأنه قَالَ: يعذبونكم بغير الذبح وبالذبح. ومعنى طرح الواو كأنه تفسير لصفات العذاب. وإذا كَانَ الخبر من العذاب أو الثواب مُجْمَلًا فِي كلمة ثُمَّ فسرته فاجعله بغير الواو. وإذا كَانَ أوّله غير آخره فبالواو"(٢)، فالفراء هنا ينبه إلى أصل بلاغي بني عليه مبحث الفصل والوصل بين الجمل، ويكشف عن قيمة العطف بالواو في المعنى، وقيمة طرحها، إذ يضفي العطف مزية المغايرة، بينما يكون المعنى في طرحها على اتصال كلام واحد مفسَّر، ولعل اعتبار اشتغال الفراء بالنحو هو ما دفعه إلى هذه التحليلات البلاغية، فعلم المعاني تحديدا ثمرة الدرس النحوي، والأمثلة على تلك التعليقات متعددة في المعاني والبيان(٣)، والمراد الإشارة إلى وجود هذه اللفتات في تفسيره.

وخلاصة هذه الجهود المبكرة أنها قد تظهر في تحليلهم اللغوي عند مقارنة التعبير بصورة الكلام المثالية المفترضة كما في مجاز القرآن، أو التعمق في ملاحظة الظاهرة اللغوية ومقارنتها بين الآيات كما عند الفراء. كما يلحظ في هذه المرحلة حضور المفهوم وغياب المصطلح، وهي ملاحظة تنسجم مع طبيعة مرحلة التكوين والنشأة.

- **الفقه وأصوله**

يعد علم أصول الفقه من العلوم التي اعتنت بالجانب اللغوي، لأنه ابتُغي به الفهم ومعرفة طرق الاستدلال على الحكم الشرعي(٤)، لذا لزم الباحث الأصولي أن يتعرض لتحليل النص الشرعي، وفحص دلالته، ومن هذا الباب قدم علماء الأصول مادة بلاغية عميقة ومميزة(٥)، وعلى الرغم من محدودية تأثير هذه المادة في الحقبة التي يدرسها البحث، إلا أنه من اللافت ما قدمه الشافعي (ت ٢٠٤هـ) في هذا الجانب، إذ بدت له عناية بالجانب الدلالي الذي يتقاطع مع المجاز وعلم البيان عموما.

ذكر الشافعي في عرضه لأنواع البيان: باب ما نزل من الكتاب عام الظاهر، يراد به كله الخاص، وساق في تعليقه على قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} [سورة الحج:٧٣] أن لفظ الناس هنا وإن كان عاما

(١) ينظر: أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، ص١٤٥.
(٢) معاني القرآن، ٦٨/١-٦٩.
(٣) ينظر: من جهود اللغويين والمفسرين في البحث البلاغي، عبد الله هنداوي، ص١٣٠-١٥٨. وأثر النحاة في البحث البلاغي، ص١٣٣-١٧١.

(٤) ينظر: المحصول، فخر الدين الرازي، تحقيق: طه العلواني، ٨٢/١.
(٥) ينظر: تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، ص٣٨.

فالمقصود به بعض الناس[١]، وهو واضح الاتصال بما استقر عند البلاغيين في المجاز المرسل.

ويذكر الشافعي في باب آخر وهو الصنف الذي يبين سياقه معناه في قوله تعالى: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [سورة الأعراف:١٦٣]، تعليقا على سؤال القرية أن السياق دال على أن المقصود سؤال أهل القرية، وقد استقر عند البلاغيين المتأخرين في إيجاز الحذف[٢]. أما علماء الأصول في القرون التالية فقد أضافوا إلى مباحث الدلالة، الحديث عن المباحث البلاغية المتعلقة بعلم المعاني، خاصة ما يتعلق بالأمر والنهي.

وبهذا يكون إسهام الاتجاه التحليلي في مسارين: مسار تعلق بفهم النص القرآني، عن طريق الإشارة إلى الأسلوب، والمعنى، وهو متعلق بالتفسير وكتب معاني القرآن، ومسار متعلق بتحليل النص بغية فهم طريقة الاستدلال، وهو متعلق بالفقه وأصوله. وقد أفادت هذه الجهود المبكرة بلورة الدرس البلاغي وإن كانت بأقدار متفاوتة.

ب. الاتجاه التأويلي

ظهر في القرن الثالث اتجاه في الدراسات التي عنيت بالنص القرآني، يجمع بين ما كتب في هذا الاتجاه التمحور حول النص القرآني أولا، ثم الانطلاق من موقع الدفاع عن النص القرآني، إثباتا لإعجازه، أو تعليلا لوجه الإعجاز. والمقصود بإثبات إعجازه أي أن يتخذ المؤلف موقف الدفاع عن إعجاز النص القرآني ردا على الطاعنين فيه من الملحدين، أو من غير المسلمين، بينما اتجه المسار الآخر إلى تعليل وجه الإعجاز ببلاغة نظمه. ولكل مسار من هذين المسارين سياقه التاريخي الدافع إلى العناية فيه والتأليف.

التأليف في المسار الأول إثباتي، فهو يتمحور حول إثبات قضية الإعجاز في وجه من ينفيها كليا، ففي هذا الاتجاه لا يكون النزاع بين تقديم وجه ورد آخر، إنما يكون في ثبوت الإعجاز للقرآن الكريم أو رفضه. ويمثل هذا الاتجاه كتاب ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) في (تأويل مشكل القرآن)، وتتنزل هذه المسألة في الجانب العقدي، الذي دفع ابن قتيبة إلى الدفاع عن ما يعتقده فيقول" وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا {مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ} [سورة آل عمران:٧] بأفهام كليلة، وأبصار عليلة، ونظر مدخول، فحرّفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله. ثم قضوا عليه بالتّناقض، والاستحالة، واللّحن، وفساد النّظم، والاختلاف. وأدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت

(١) ينظر: الرسالة، تحقيق: أحمد شاكر، ٦٠/١.

(٢) ينظر: السابق،٦٣/١.

الضّعيف الغمر، والحدث الغرّ، واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك في الصدور... فأحببت أن أنضح عن كتاب الله، وأرمي من ورائه بالحجج النيّرة، والبراهين البيّنة، وأكشف للناس ما يلبسون"(١)، وهذا النص يكشف عن عدة أمور:

- سياق تأليف الكتاب، فهو موجه إلى من وصفهم بالملحدين.
- القضايا الملتبسة التي دفعته للتأليف بشأنها وهي التحريف، والحكم بالتناقض، واللحن، وفساد النظم.
- الغاية من التأليف وهي دفع التهم لأجل الحفاظ على الضعيف والحدث من التسليم لهذه الشبه.

وهو ما يقود إلى ملاحظة مهمة بشأن البلاغة في هذا الطور، إذ أصبحت علما تأويليا(٢) لصون المعتقد. ولهذا وظف ابن قتيبة البلاغة العربية في دفع التهم المتعلقة بالمستوى اللغوي خاصة.

أما أهم المسائل التي أثْرَت الدرس البلاغي في هذا المؤلف فهي قضية المجاز، إذ يؤصل لهذه المسألة من نصوص متنوعة من الإنجيل والزبور ثم ينتقل لكلام العرب، وحديث ابن قتيبة عن المجاز بمفهومه العام جاء في سياق الدفاع عن القرآن الكريم، بمعرفة طبيعة أساليب العرب في كلامها، وهو ينطلق في هذا الاتجاه من موقف تأويلي للنصوص التي قُرئت قراءة ظاهرة لم تستوعب مستويات العدول في كلام العرب فيقول: "وأما الطاعنون على القرآن(٣) (بالمجاز) فإنهم زعموا أنه كذب؛ لأن الجدار لا يريد، والقرية لا تسأل"(٤). وفي هذا السياق يذكر ابن قتيبة الاستعارة، وهو في تحليله لمواضعها في القرآن ينحو بها إلى المنحى التأويلي المشار إليه. وهكذا يصل إلى نتيجة يقررها بقوله: "وبكل هذه المذاهب نزل القرآن"(٥). إذ تكمن الموازنة هنا في دراسة الأساليب في ضوء منطلقين: صدور هذه الأساليب على طريقة العرب في كلامها، واتباعها سنن اللغة المتواضع عليها، بينما تتميز في الوقت ذاته عن الكلام البشري، وكأنها مستويات من الإبانة يعلو بعضها بعضا في اتجاه الخروج عن النسق المألوف(٦).

إذن كان كتاب (مشكل تأويل القرآن) من الروافد التي طغى على مادتها المباحث البلاغية، من خلال التفصيل في أنواع المجاز، بمفهومه اللغوي العام، وإن وظفت تأويليا في سياق الدفاع عن القرآن الكريم، فكانت مدفوعة بالبعد الديني.

(١) تأويل مشكل القرآن، تحقيق: أحمد صقر، ص٢٢و٢٣.
(٢) ينظر: موسوعة البلاغة، توماس أ. سلوان، ترجمة: نخبة بإشراف: عماد عبد اللطيف، ١٣٠/١و١٣١.

(٣) من الملاحظ أن هذه الآراء لم تنسب لأصحابها، ولا لمؤلف معين، وهو ما يطرح سؤالا أمام الباحث، أكان ذلك الصوت له حضوره في التأليف، ثم غيب قصدا، أم كان يَرد في مناظرات، فيردده غير المتعمق في هذه العلوم، وهو ما تنبغي قراءته في سياقه السياسي والفكري والاجتماعي لتلك الحقبة.
(٤) تأويل مشكل القرآن، ص١٣٢.
(٥) السابق، ص٢١.
(٦) ينظر: التفكير البلاغي، ص٢٩٧.

وقد وظفت البلاغة في الاتجاه التأويلي في سياق آخر مذهبي، في المسائل العقدية المتعلقة بصفات الله عز وجل، عند المعتزلة خاصة، ليواجهوا بها مشكلة النصوص التي يدل منطوقها على إثبات صفات لله عز وجل، وللمعتزلة موقف من تركيب الصفات على الذات، ويرون بوحدة الذات والصفات(١)، ومن هنا سعوا إلى تأويل ماورد في ظاهر نصوص القرآن من إثبات الصفات. ومثال هذا التوظيف التأويلي تعليق الجاحظ على قوله تعالى: {مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ} [سورة لقمان:٢٧]، قال: "والكلمات في هذا الموضع، ليس يريد بها القول والكلام المؤلّف من الحروف، وإنّما يريد النّعم والأعاجيب"(٢)، ويدل على ارتباط هذا المبحث بالمبالغة استدراك الجاحظ في تأويل قوله تعالى: {أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ} [سورة النمل:٨٢] بعد أن اعتمد في تأويله على رأي لابن عباس قال: "وقال الآخرون: لا ندع ظاهر اللفظ والعادة الدالّة في ظاهر الكلام، إلى المجازات، قالوا: فقد ذكر الله الدابّة بالمنطق، كما ذكروا في الحديث كلام الذئب لأهبان بن أوس. وقول الهدهد مسطور في الكتاب بأطول الأقاصيص، وكذلك شأن الغراب"(٣).

مما سبق يتبين أن مبحث المجاز كان من أوضح مباحث البلاغة حضورا في التوظيف التأويلي للبلاغة، وقد ارتبط ببعد ديني على مستويين: مستوى يعود بالأسلوب والتركيب إلى أصله الافتراضي، لدفع التناقض العقلي عن العبارة، من خلال إيضاح العدول والتغيرات التي طرأت على العبارة، ومستوى آخر وظفت فيه البلاغة في الاتساق العقدي، بالحمل على الممكن في اللغة.

ج. الاتجاه التعليلي

ينحو هذا الاتجاه إلى البحث عن مناط الإعجاز في القرآن الكريم، والعلة التي تفرد بها، فأصبح في طبقة من الكلام تعلو الكلام البشري، وهذا المستوى من الإثبات ظل يناقش داخل دائرة الإقرار بإعجاز القرآن الكريم، لذا فهو يختلف عن المستوى السابق.

ومن الملاحظ أن البحث في علة الإعجاز من هذا الوجه لم يكن له حضوره الواضح إلى نهاية القرن الثالث الهجري- على الأقل فيما وصلنا-، ويجدر تسجيل ملحوظتين في هذا الجانب:

١- لم يصل من كتب هذه المرحلة شيء على الرغم من تدوين أصحاب الفهارس لمؤلفات في هذين القرنين كالمقولات عن: واصل بن عطاء (ت ١٣١هـ)، والفوطي (ت ٢٣٠هـ)، وعباد المعتزلي وكتاب الواسطي (ت٣٠٦هـ) والجاحظ وغيرهم(٤).

٢- أن مقولة الصرفة كانت من المقولات التي لقيت حضورا بارزا في كتب الإعجاز، نفيا أو إثباتا، بعد

(١) ينظر: التراث النقدي والبلاغي عند المعتزلة، وليد قصاب، ص٨٢.
(٢) الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، ٢٠٩/١.
(٣) السابق: ٥٠/٧.
(٤) ينظر: إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، منير سلطان، ص٥٠.

القرن الثالث الهجري(١). وعلى الرغم من أن مسألة الصرفة ونسبتها للنظام يكتنفها غموض يكاد يشكك في نسبتها إليه(٢) على النحو الذي نقل عنه، إلا أنها أثرت الدرس البلاغي.

ويبدو أن كتاب الجاحظ المفقود (الاحتجاج لنظم القرآن)، ذو علاقة بهذا البعد، من ظاهر عنوان الكتاب الذي يرد فيه الإشارة إلى النظم، ويعضده نص آخر له يشير إلى الكتاب فيقول: "فكتبت لك كتاباً، أجهدت فيه نفسي، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن، والرد على كل طعان. فلم أدع فيه مسألة لرافضي، ولا لحديثي، ولا لحشوي، ولا لكافر مباد، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النظام، ولمن نجم بعد النظام، ممن يزعم أن القرآن خلق، وليس تأليفه بحجة، وأنه تنزيل وليس

(١) ينظر مثلا: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام. فكلها ناقشت مقولة الصرفة.

(٢) ذكر بعض الباحثين عددا من الشكوك حول نسبة القول بالصرفة على الوجه المنسوب للنظام من أنه يرى أن مناط الإعجاز في صرف العرب عن معارضة القرآن الكريم مع قدرتهم عليه. ووجه ذلك أنه لم يصلنا مؤلف عن النظام يثبت هذه المقولة له، وأن ما وصلنا عن عصريه الجاحظ لم يثبت له سوى إثبات الإعجاز بالمعاني الغيبية، ونفيه أن يكون في نظمه، مع ما لحظه أبو الحسين الخياط (ت ٣١١هـ) في كتاب الانتصار من تفرد الجاحظ بنقل بعض الآراء عن النظام لايوافقه عليها ولا يوافقه أصحاب النظام كذلك. ولعل أول من أضاف هذه الزيادة أبو الحسن الأشعري (ت ٣٢٤هـ) وهو لم يدرك النظام وبينهما نحو ربع قرن. فهل كانت هذه الإضافة مما فهمه الأشعري؟ أو نقله مما لم يصل إلينا؟ مع الأخذ بعين الاعتبار الشك والنقد في نقل مقالة المخالفين للمذهب. ينظر: إعجاز القرآن الكريم بالصرفة، دراسة ناقدة، محمود توفيق محمد سعد، ص ١٦-٢٣. وإعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، ص٥٤.

ببرهان ولا دلالة"(٣)، فالكتاب كما يظهر من كلامه فيه رد على النظّام في نفيه لحجية نظم القرآن، أي أن الجاحظ يحتج في هذا الكتاب على أن نظم القرآن والمقصود به هنا التأليف بين كلماته وجمله وآياته مشكلة السورة التي كانت الحد الأدنى للتحدي(٤).

وللجاحظ عدة لفتات في هذا الاتجاه فقد أشار إلى دقة استعمال الكلمة القرآنية في السياقات التي ترد فيها، وإلى اطراد استعمال بعض المفردات القرآنية في سياق معين، كاطراد استعمال الجوع في موضع العقوبة، والفقر، والعجز، واستعمال المطر في موضع الانتقام على أن العامة لا تميز في استعمال ذلك(٥). ويشير الجاحظ إلى استعمال المجاز في قوله تعالى: {أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ} [سورة المائدة:٤٢]، وفي قوله تعالى:{إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا} [سورة النساء:١٠](٦)، كما أنه يتعمق في تحليل بعض الأساليب القرآنية مثلما فعل في قوله تعالى: {طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} ، فقد حلل التشبيه في ضوء الصورة الذهنية للمجتمع، وللطبع الإنساني حين

(٣) رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، ٢٨٧/٣.

(٤) يقول الجاحظ في رسائله: "لأن رجلاً من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة، طويلة أو قصيرة، لتبين له في نظامها ومخرجها، وفي لفظها وطبعها، أنه عاجز عن مثلها. ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها. وليس ذلك في الحرف والحرفين، والكلمة والكلمتين... وهذا كله في القرآن، غير أنه متفرق غير مجتمع؛ ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة، طويلة أو قصيرة، على نظم القرآن وطبعه، وتأليفه ومخرجه لما قدر عليه، ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان" ٢٢٩/٣.

(٥) ينظر: البيان والتبيين ٢٠/١.

(٦) ينظر: الحيوان: ٢٥/٥.

يقول:" كان الله تعالى قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشّياطين، واستسماجه وكراهته، وأجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في ذلك– رجع بالإيحاش والتّنفير، وبالإخافة والتقريع، إلى ما قد جعله الله في طباع الأوّلين والآخرين وعند جميع الأمم على خلاف طبائع جميع الأمم"(١). وبهذا نخلص إلى أن هذا الاتجاه كان من أقل الاتجاهات حضورا في ما نقل إلينا إلى نهاية القرن الثالث.

إذن كان الدافع الديني سببا في تعدد زوايا النظر إلى النص القرآني، فقد دفع تحليل المفسرين والفقهاء إلى التعرف على طبيعة هذا النص، وطبيعة معانيه بغية فهمه أولا، ثم العمل بموجبه. وقد دفعت الشبهات والشكوك حول القرآن الكريم إلى أن توظف البلاغة تأويليا لدفع الطعون التي تحاول أن تشكك في استقامة لغته، أو مآلات معانيه. وانسحب هذا التأويل إلى الصراع المذهبي فجعلت البلاغة في خدمة المعتقد. وقد أتاحت المناظرات المذهبية أن يتولد نظر آخر إلى النص القرآني باعتبار المفارقة بينه وبين الكلام البشري قائم في اللغة، ولإثبات علة هذه المفارقة نشطت مباحث الإعجاز البلاغي.

الخاتمة

عرض البحث لأثر الباعث الديني على نشأة البلاغة من مرحلة النشأة والتكوين إلى مرحلة التأليف المستقل، من خلال إلماحة إلى المنجز حتى نهاية القرن الثالث، وبالنظر إلى سياقاتها خلص البحث إلى الوقوف على ثلاثة مساقات شكلت مرتكزات نظر في تشكيل علاقة اللغة بالقرآن الكريم وهي التحليل، والتأويل، والتعليل. وقد خلص البحث إلى النتائج الآتية:

- يلحظ في الدراسات المبكرة التي أثر فيها الباعث الديني حضور المصطلح بمفهومه اللغوي العام، وقد يختلف في مفهومه عن مرحلة استقرار المصطلح لاحقا.
- في سياق الباعث الديني ظهر على تناول المؤلفين حضور خلفياتهم اللغوية.
- كانت الغاية الرئيسة من الباعث الديني محاولة الفهم بتحليل الأسلوب، وصولا إلى فهم المعنى، أو معرفة طبيعة الدلالة، ليقترن باستنباط الحكم الشرعي.
- استعملت البلاغة علما تأويليا لغرضين: تنزيه القرآن الكريم عن الطعون والتحريف، وتنزيه الله سبحانه وتعالى، وكان مبحث المجاز من أقرب المباحث التأويلية في هذا السياق.
- استعملت البلاغة في السياق المذهبي وسيلة للتأويل للمواءمة بين اللغة والمعتقد.
- تأخر إثارة سؤال المزية والعلة في إعجاز القرآن الكريم في الحقبة موضع الدراسة.

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) السابق:٣٩/٤.

المصادر والمراجع

أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، دار غريب، القاهرة، ١٩٩٨م.

إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، منير سلطان، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط١٩٨٦،٣م.

بديع القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: حفني شرف، نهضة مصر، القاهرة، د.ت.

البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، محمد العمري، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط١٩٩٩،١م.

البلاغة العربية، تاريخها، مصادرها، مناهجها، علي عشري زايد، مكتبة الآداب، القاهرة، ط٦، ١٤٢٩هـ /٢٠٠٨م.

البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة التاسعة.

بلاغة المنطوق وبلاغة المكتوب، دراسة في تحول الخطاب البلاغي من القرن الثالث الهجري إلى القرن الخامس الهجري، نور الهدى باديس، تونس، مركز النشر الجامعي، ط١، ٢٠٠٥م.

البيان العربي، دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، بدوي طبانة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م.

البيان والتبيين، لأبي عثمان الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، مهدي السامرائي، دار عمار، عمان، ط١، ١٤٢٨هـ /٢٠٠٨م.

تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة الدينوري، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار إحياء دار التراث، القاهرة، ط١٣٩٣،٢هـ/١٩٧٣م.

إعجاز القرآن الكريم بالصرفة، دراسة ناقدة، محمود توفيق محمد سعد. بحث منشور على الشبكة.

التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري، وليد قصاب، دار الثقافة، الدوحة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، حمادي صمود، الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط٣، ٢٠١٠م.

ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، حققها: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط٤.

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، لأبي منصور الثعالبي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

الحيوان، لأبي عثمان الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة البابي، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م.

خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، محمد رجب بيومي، مجمع البحوث الإسلامية، السنة الثالثة، الكتاب الثاني والأربعون، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، جورج كانغيلام، ترجمة: محمد بن ساسي، المنظمة العربية للترجمة،

بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.
الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت.
رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم، أهميته وأثره ومناهج المفسرين في الاستشهاد به، عبد الرحمن الشهري، دار المنهاج، الرياض، ط١، ١٤٣١هـ.
العقائدية وتفسير النص القرآني، المناهج، الدوافع، الإشكالات، المدونات، دراسة مقارنة، ياسر المطرفي، الرياض، مركز نماء للبحوث والدراسات، ط١، ٢٠١٥م، ص١٤.
قضية نشأة النحو العربي في آثار الدراسين، عرض ونقد، محمد ربيع الغامدي، مجلة الدراسات العربية، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، ٢٠١٠م، مج٥، ع٢، ص٢٦٧٥-٢٧٣٧.
مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق: فؤاد سيزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة. د.ت.
المحصول، لفخر الدين الرازي، دراسة وتحقيق: طه العلواني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
مسائل نافع بن الأزرق في ميزان النقد، د. عبد الرزاق هرماس، حولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية بجامعة قطر. ١٤١٩هـ، ع١٦، ص١٣-٦١.
معاني القرآن، أبو زكريا يحيى الفراء، تحقيق: محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي، عالم الكتب، ط٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
من جهود اللغويين والمفسرين في البحث البلاغي، عبد الله هنداوي، مطبعة الأمانة، القاهرة، ط١، ١٩٨٦م.
الموجز في تاريخ البلاغة، مازن المبارك، دار الفكر، دمشق. د.ت.
موسوعة البلاغة، توماس أ. سلوان، ترجمة: نخبة، بإشراف: عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٦م.
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس أحمد بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت. د.ت.

The Impact of Religious Motivation in the Emergence of Arabic Rhetoric A Reading in the Era of Composition to Independent Authorship

Wael Omar Alomari

King Abdulaziz University -Faculty of Arts and Huminites

Saudi Arabia, Jeddah

Abstract .The roots of the rhetorical lesson grew in a fertile religious land. They characterized its rhetoric from the rhetoric of the rest of the nations as it was connected with the Qur'anic text. However, the religious stream did not have only one subject and one goal. It produced multiple contexts that refined the teachings of the rhetorical lesson later on. This diversity was a fertile tool for Arabic eloquence.

The research sought to discuss the details of the roots, to extract the courses of religious influence in the emergence of Arabic rhetoric. The research has gone beyond the oral news and stories to begin with the written diaries, in search of the author's motivations and his aims, and of the milestones that contributed to the reading of the rhetorical lesson. It emanated from the signs of the composition, so the limits of the research stopped at the beginning of the independent composition of Arabic rhetoric and moved to a stage approaching the methodology.

The research revealed three courses that stemmed from the religious influence which were related to language. These three courses are analysis, interpretation and explanation. They were tools that were used in the analysis that aimed to understand the Qura'nic text in order to transfer it from language to practice. The interpretation, on the other hand, raised the question of compatibility between language and belief. The explanation tried to deal with the issue of miracles and clarifying its features.

The re-reading of the history of science is an area that can research, re-ask the question, and disassociate its relations, to understand the process of science, and the impact of their tributaries on their concepts. This is what researchers can examine in the rest of the tributaries that have fueled the rhetorical lesson.